

من أعلام الجزائر النسيين القاضي ابن عطية الوشرسي.

الأستاذ: الحسين يختار

باحث في التراث الإسلامي - معسكر

نشأته وحياته: هو العالم الجليل الفقيه البارع والقاضي والأديب الفرضي المتصدر، صاحب الإجازات الحاج أبو علي الحسن بن عصمان بن عطية بن موسى التوجيتي الوشرسي يختصر لقبه تحقيقا بالحسن بن عطية نسبة إلى جده أبي عطية بن موسى الذي كان إماما في الفقه بجبل الوشرسي، وكان جليلا صالحا من ذوي الفضل ورئيسا مقدما.

ولد بالونشريس عام 734 هجرية في بيت عرف بالعلم والتقوى والصلاح، ويظهر أنه لم يجد كثير عناء في تلقي علومه الأولى، فألى جانب جده عطية بن موسى المتقدم كان والده أبو سعيد

على الرغم من أن شهرة الحسن بن عطية الوشرسي طبقت الآفاق، وحظوته في الفقه والفتوى والقضاء معلومة، إلا أن كتب التراجم والسير لم تسلط الأضواء على مكان ولادته ولا عن نشأته والمراحل الأولى من حياته، ورغم ذلك فقد حاولنا الاهتداء إلى ترجمة وجيزة وإطلالة سريعة على حياته من خلال الجمع بين النثرات التي صادفناها ماثورة في ثنايا مراجع التاريخ والفقه والأدب والطبقات من جهة، ومن خلال الاطلاع على الحياة السياسية والاجتماعية العامة التي طبعت عصره، والمكانة المرموقة التي حظيت بها أسرته من جهة ثانية.

ولم يعرف عن ابن عطية أنه سافر في سبيل العلم على غرار ما كان يفعل معاصروه، وكانت نشأته في بيوت العلم والمعرفة ونسبه في آل عطية التي حملت لواء العلم والدين أغناه عن الترحال في سبيل العلم والتشوق إليه خارج دائرة أسرته وذويه، ويسر له -دون جهد وعناء- بلوغ ما كان يطمح إليه، ولم يذكر مترجموه من شيوخه سوى أبو البركات ابن الحاج البليقي القاضي دفين مراکش سنة 771هـ صاحب الإجازات المشهور.

وقد سمحت له ظروف المعيشة الميسرة وساعدته نشأته في بيوت العلم والصلاح والقضاء والرياسة سرعة نبوغه في العلم مبكراً وتضلعه في الفقه وبراعته في الفتيا والفرائض والحساب والأدب وقرض الشعر وهو حدث صغير كما حكى ذلك عن نفسه في أرجوزته التي نظمها إلى السلطان المتوكل فارس أبو عنان المريني والتي سنعرضها لاحقاً.

وعندما اكتملت معارفه ونمت مداركه ونهل من علوم الشرع واللغة والبلاغة ما يكفي، تصدى هو الآخر

عثمان بن عطية هو الآخر "فقيها ومفتياً وورعاً صالحاً" حسب ما نعت به الونشريسي أبو العباس الذي نقل عنه كثيراً من الفتاوى في مواضع مختلفة من كتابه المعيار، ثم عمه الحسن المتوفى سنة 781هـ والموصوف بالقاضي الفقيه المحصل راوي الموطأ من طريق يحيى بن يحيى الليثي، ثم عمه الآخر أبو الخير يونس بن عطية الذي تولى القضاء بقصر كتامة وكان أستاذاً في فروع المذهب، وأخوه عمر بن عثمان بن عطية المتوفى سنة 816هـ الذي اشتغل أيضاً بالتدريس والتعليم بفاس ثم مكناس، وكان متبحراً في فنون العربية وصروفها، ومن جلة تلامذته الذين حضروا مجالسه واعترفوا بفضلهم وتفوقه على أقرانه الإمام ابن غازي المكناسي والوزير الأديب لسان الدين ابن الخطيب، وأخوه سحنون بن عثمان الونشريسي الذي كان أيضاً من أعلام اللغة والأدب والبديع كما تشهد له صنائعه التي له منها: "شرح الربط في الخمس الخالي الوسط" ومنها "المرآة المقابلة في أوجه المماثلة".

للتعليم والتدريس فاشتغل بالمدرسة النظامية - مدرسة الشهود - التي حملت اسمه فيما بعد، كشيخ وأستاذ في العلوم التي برع فيها من فقه وأدب وفرائض وحساب وشروح متن الرسالة لابن أبي زيد القيرواني حتى تخرج على يديه عدد لا بأس به من الطلبة الحفاظ والمشايخ الكرام وكان من جلتهم الإمام الفقيه والعالم الجليل ابن الأحمر صاحب الفهرسة، ووصيفه الأديب البارع الوزير لسان الدين ابن الخطيب صاحب التصانيف الكثيرة ومؤلف الرحلة الشهيرة المسماة (نفاضة الجراب في علالة الاغتراب).

وخلال اشتغاله بالتدريس هناك أعجب به السلطان المريني فارس أبو عنان لما لاحظته من مهارة الفتى الونشريسي ومروءته وإتقانه، ولما بلغه من أخبار عدله وإنصافه، فأصدر مرسوما يقضي بتعيينه في العشرة الشهود المعتمدين الذين كانوا يتمتعون بأهلية الضبطية القضائية، إلا أن عدول مكناش وقضاتها الذين شملهم المرسوم بالعزل وكانوا زهاء نيفا وسبعين،

اغتضوا لهذا الأمر وسعوا بالوشاية على السلطان بغرض رده عن قراره وبدعوى أن ابن عطية الونشريسي لا يزال حدثا صغيرا لم يبلغ الأربعين بعد، وأن ذلك مدعاة للشؤم والتطير - على حد زعمهم، فأنشأ ابن عطية نظما ورقعة إلى السلطان المريني للرد على مزاعم المناوئين له وإبطال دعواهم جاء فيه:

نبدأ بحمد الله

ونستعينه على الدواهي

ثم نوالي بالصلاة والسلام

على رسول دونه كل الأنام

وبعد ذا نسال رب العالمين

أن يهب النصر أمير المؤمنين

خليفة الله أبا عنان

لا زال في يمن وفي أمان

ملكه الله من البلاد

من سوسة الأقصا إلى بغداد

ويسر الحجاز والجهاد

وجعل الكل له مهادا

يا أيها الخليفة المظفر

دونك أمري أنه مقسر

بن عطية قد شغل بالتدريس والفتوى والقضاء عن الكتابة والتأليف، فلم يذكر له مترجموه أنه خلف آثارا أو مؤلفات عدا أرجوزته الشهيرة التي نظمها في علم الفرائض والتي وصفوها بأنها: "رجز حسن سلس"، وباستثناء رسائله التي كتبها جوابا على أسئلة النوازل التي كانت ترد إليه من فاس ومكناس وأهالي تلمسان ومدن الأندلس، والتي كثيرا ما كان يعول عليها الونشريسي في نوازل المعيار منها: رسالة في جواز وقف المال المشاع بعنوان: "رفع النزاع في تحبيس المال المشاع، وهو جواب للفصل في النزاع الذي وقع بين فقهاء عصره في تحبيس الجزء المشاع موردا للروايات في ذلك، ورسالة في: "الولاية عن تزويج اليتيمة القاصرة"، ورسالة أخرى تضمنت جوابا مختصرا في شأن: "مدرسة حبست خصيصا لطلبة علوم الدين"، بالإضافة إلى رسالة في: "إثبات النسب من جهة الأم"، ألّفها ردا على من سأله ثبوت النسب إلى البيت النبوي الشريف من جهة أمه بمجرد الشهرة والذيوخ والخبر المستفيض وهل يثبت له ذلك نسبا أم لا؟

عبدكم نجل عطية الحسن
قد قبل لا يشهد إلا أن أمن
وهو في أمركم المعهود
من جملة العشرة الشهود
نص عليه أمركم تعيينا
وسننه قارب الأربعين
مع الذي ينصب العبد إليه
من طلب العلم وبحثه عليه
على الفرائض له أرجوزة
أبرز في نظامها إبريزة
ومجلس له على الرسالة
فكيف يرجو حاسد زواله
حاشا أمير المؤمنين ذاكا
وعدله بلغ السماكا
وعلمه قد طبق الأفاق وحلمه
قد جاوز العراقا
وجوده مشتهر في كل حي
قصر عن إدراكه حاتم طي
ولما بلغت السلطان المريني أبا
عنان هذه القصيدة أمر بتثبيتته وإبقائه
في العشرة الشهود.
ويبدو أن الأستاذ أبو علي الحسن

ويظهر أن ثمة آثار ما تزال تنتظر العناية والاهتمام.

وفاة مترجمنا: حجّ ابن عطية الونشريسي مع خلق كثير، ورجع على فاس، وفي بعض التقاليد لابن غازي: "وهم أن يتفرغ للعبادة حتى يموت فقالت له امرأته: "إما أن ترجع إلى القضاء وإما أن تطلقني، فإني استأت أن يخدمني النساء، فرجع إلى القضاء فبقي خمسة عشر يوماً ثم مات" ولم تعرف لوفاته رحمه الله تاريخاً محدداً إلا أن تلميذه ابن الأحمر يذكر بأنه كان حياً قرب التسعين وسبعمئة للهجرة 790هـ وهو ما دفع بعضهم وهما إلى اعتبارها سنة وفاته، وهو غير صحيح، لأن صاحب المعيار صرح بأن الجواب السابق الذي كتبه في شأن تحبّيس المدرسة الشرعية كان في الرابع من ذي القعدة عام سنة وتسعين وسبعمئة للهجرة 796هـ.

الحياة السياسية والثقافية التي

طبعت عصره بجبل الونشريسي:

عاصر ابن عطية الونشريسي فتناً عصيبة واضطرابات سياسية لا

حدّ لها بدأت منذ مقدم قومه إلى جبل الونشريسي مع نهاية القرن الهجري الخامس حينما أقاموا مملكة بن توجين بقيادة جدّهم الأول عبد القوي بن العباس بن عطية بن توجين، واتخذوا من جبل الونشريسي قاعدة سياسية وعسكرية لهم بعد أن وهن أمر بني عبد المؤمن، وبعد أن تصدوا لزحف مغراوة المغيرين من نواحي شلف إلى أعالي الونشريسي فمنعواهم وردوهم وحالوا دونهم، ولم يستقر أمر بني توجين على حال فقدر لهم أن ظلت حياتهم كلها بين سلم وحرب، فتوالت عليهم حملات بني عبد الواد الذين اشتدت ضراوتهم بصفة خاصة في أيام يغمراسن بن زيان الذي استقر سائر أحياء زناتة لغزو بلدان المغرب ومسابقة بني مرين إليه -على حد قول ابن خلدون- ثم نجله أبو حمو عثمان فيما بعد، وكان موت أمير بني توجين محمد بن عبد القوي إيذاناً لبداية عهد جديد، طبعه النزاع على الملك والصراعات التي قامت بين أحياء وقبائل بني توجين نفسها طمعاً في الظفر بزمام السلطة، إلى أن آل ملكهم للزوال والاضمحلال، وتجرع

المعيار أن والده أبو زكرياء يحيى بن علي كان أيضا فقيها ومفتيا، وكان شيوخ "مقرة" بالمسيلة وصلحائها يستفتونه في مسائل الشرع مع أنهم أخواله، وكان شقيقه محمد بن يحيى بن علي الونشريسي هو الذي كتب نوازل ابن سهل الأسدي بتلمسان عام 854هـ، ومنهم أبو الربيع سليمان بن إبراهيم الونشريسي الفقيه المتوفى سنة 750هـ الذي كان ابن لب مفتي غرناطة يرجع إليه في كثير من أمور الشرع والدين، وهذا كله مما يعزز القول بأن تراث الجزائر العظيم -ورغم الجهود التي بذلت من أجله- لا يزال يحتاج إلى حرص وعناية وتدقيق حتى يتسنى لجيل هذه الأمة الاطلاع على ذلك الزخم الهائل الذي يتألف منه رصيدها الحضاري الكبير.

منزلته العلمية:

يبدو أن ابن عطية الونشريسي قد نال حظا واسعا من الاحترام والتقدير الكبيرين منذ أن وطأت قدماه بلدان المغرب الأقصى لا سيما لدى أعيان وسلاطين مملكة بني مرين الذين أكرموه

بنو توجين مرارة الهوان حتى الثمالة فصاروا -على مضض- إلى حكم بني عبد الواد بعد أن أذعنوا مكرهين لسلطان المرينيين أبي عثمان بضع سنين، وبقي أعقابهم بجبل الونشريس إلى أن انقرضوا جميعا وتفرقوا بين قرى وبلدان المغربيين الأوسط والأقصى.

ومع هذه الفتن والصراعات السياسية التي ظلّ جبل الونشريس مصرحا لها ردحا من الزمن إلا أنه قد احتضن -في خلال تلك الفترة- من الأعلام والفقهاء والأدباء والصلحاء ما يدعو إلى القول بأن الونشريس كان أيضا -ورغم كل ذلك- مركز إشعاع فكري وحضاري، وهو جدير بأن يصنف إلى جانب المدارس والمدارات التي صنعت مجد الجزائر بدءا من إقليم توات جنوبا إلى بجاية وزواوة وبني حماد ومشدالة وعنابة شمالا إلى مليانة ومازونة وبني راشد ووهران وتلمسان غربا.

والى جانب من ذكرنا من العلماء، عرفت منطقة الونشريس رجالا آخرين نبغوا في العلم والفقه وعلم اللغة سيما وقد حكى الونشريسي أبو العباس في

ووهبوه ما لم يحظ به عندهم غيره من المنزلة والمهابة والتي تجلت من خلال ما رأينا من تعيينه كأول من درس بمدرسة الشهود بمكناس وما عرفناه من حادثة تعيينه في العشرة المعتمدين وهو فتى صغير رغم المعارضة القوية لمناوئيه الذين هموا بما لم ينالوا.

وهي الحادثة التي على الرغم من أنها خرجت من مناوئيه مخرج الحسد والضغينة إلا أنها صنعت شهرته التي استطارت في الأفاق ورفعت من مقامه وتناقلها تلامذته ومحبوه على جهة الفخر والاعتزاز حتى بلغت مسامع بجاية وفاس وغرناطة وشاطبة والمرية وغيرها من المدن التي كانت حواضر العلم والمعرفة بالمغرب والأندلس...

ولعل أحسن ما يمكن الاستشهاد به في هذا المقام، هو ثناء العلماء والفقهاء من معاصريه وتلامذته ومحبيه، أمثال أبي العباس الونشريسي الذي نقل في وثائقه عن القاضي الرئيس أبي الوليد إسماعيل صاحب "تأنيس النفوس في إكمال نبط العروس" قوله: "الفقيه العالم، الفرضي، الصدر، أبي

علي الحسن بن عثمان بن عطية بن موسى الونشريسي"، وعنه يقول أيضا في معياره الكبير: "القاضي الأعدل، المدرس العالم المفتي الأكمل، أبو علي الحسن بن الشيخ الصالح الورع المقرئ المرحوم أي سعيد عثمان بن عطية الونشريسي". ويقول: "بلدينا الفقيه القاضي أبو علي الحسن بن عثمان بن عطية الونشريسي"، ومما قاله عنه ابن الأحمر وهو أقرب تلامذته وأخصهم به: "هو شيخنا الفقيه المفتي المدرس القاضي الفرضي الأديب الحاج أبو علي ابن الفقيه الصالح أبو سعيد عثمان التيجاني المنعوت بالونشريسي".

ومما نقله المقرئ في نفح الطيب عن تلميذه لسان الدين ابن الخطيب في رحلته المسماة: (نفاضة الجراب في علالة الاغتراب): "كان فقيها عدلا من أهل الحساب والقيام على الفرائض والعناية بفروع الفقه ومن ذوي السذاجة والفضل ويقرض الشعر وله أرجوزة في الفرائض مبسطة العبارة ومستوفية المعنى".

وبعد أن أورد ابن غازي المكناسي

والحاصل أنه مهما قيل في حق هذا العلم الشامخ من الأقوال والشهادات، فإنه قليل بالنظر إلى ما كان عليه هو وآباؤه وذووه من الخصال العظيمة والمناقب الجمّة، ومع يقيننا بأن مثل هذه العروض الموجزة لا تفي بالغرض المقصود، إلا أنه عساها أن تكون فاتحة شهية لعشاق التراث ومحبيه من أن تنهض بهم العزائم لنفض غبار النسيان عن ماضي الأمة العريق ورجالاتها المغاوير الأفاضل.

أولئك آبائي فجئني بمثلهم

إذا جمعتنا يا جرير المجامع

ملاحظة: للموضوع مراجع

قصة الشهود المذكورة آنفا عدّه في جملة الأعلام الذين حظيت بهم مدينة مكناس وتشرفت بمقدمهم فقال: "ومنهم الفقيه العدل أبو علي الحسن بن عثمان بن عطية" ثم ساق شهادة ابن الخطيب المتقدمة بتمامها.

ومما جاء في شجرة النور الزكية قوله: "الإمام الفقيه الفرضي المفتي القاضي العادل".

والى جانب هذه الألقاب كلها والنعوت، رأينا كيف كان شيوخ المغرب يجلّونه ويستقضونه فيما كانوا فيه يختلفون، وكيف كان الأستاذ ابن لب يستشيريه فيما أشكل عليه من نوازل غرناطة رغم بعد المسافة بينهما.

